شوائب اللغة العربية

لجناب يوسف افندي شلحت

ان ماذكرناهُ في الجزء السابق من افتقار اللغة الى ألفاظ جديدة تدل على المعاني التي احدثها تقدمنا في العلوم واخذنا عن الفرنجة الاكتشافات والعوائد تقابلهُ شائبة الزوائد اللغوية التي لا فائدة لها سوى اعاقتنا عن اجتناء ثمرات المعارف واضاعة وقتنا بما لا كبير فائدة فيهِ

وبيان ذلك ان غنى اللغة لا يقوم بكثرة الالفاظ بل بكثرة المعاني الدالة عليها الالفاظ . وعليهِ فاللفظ كناية عن أصوات يخرجها الانسان من فيهِ . ولما كان لهذه الاصوات مخارج مختلفة وضع لكل مخرج حرف مخصوص علامةً لهُ . ومجموع هذه الحروف في اللغة العربية يدعى الحروف الهجائية او الابجدية وهي ثمانية وعشرون حرفًا . وقد خصصنا شيئًا من المعاني بالعدد القليل من الاضرب الناتجة من تركيب هذه الاحرف فسميناها كلمات وبها تقوم اللغة . ولو اردنا تخصيص معانٍ بالكثير منها لضاق بنا المجال لقلة المعاني بالنسبة الى كثرة عدد هذه الاضرب بل لكان عدد الالفاظ المعنوية بلغ حدًّا يكلّ الحاسب من حصرهِ . وهاك بيان ذلك

ان حرف الالف ليس لهُ سوى ضرب واحد هو ا . وما يحصل من تركيب حرفين ضربان هما اب با اي ١ × ٢ = ٢ . وما يحصل من تركيب ثلاثة حروف ستة اضرب في ابت اتب بات بتا تاب تبا اي ١ × ٢ × ٣ = ٦ . وما يحصل من تركيب اربعة حروف اربعة وعشرون ضربًا اي ١ × ٢ × ٣ × ٤ = ٢٤ وهلمَّ جرًّا باضافة برج اي عدد مضروب فيهِ كلما اضفت حرفًا . فاذا فرضنا ان اللغة تقوم بعشرة حروف تمكنًا بواسطة اختلاف تركيبها من الحصول على ثلاثة ملايين وستمائة وعشرين الفًا وثمانمائة لفظة فكم يا ترى يكون عدد الالفاظ من تركيب بقيّة حروف الهجاء ومن تركيب هذه الحروف معها ومن الاقتصار على حرفين او ثلاثة او اربعة الخ في الكلمة . واذا نوعنا تحريك هذه الاضرب بقولنا مثلاً في " عَدَلَ " عَدِلَ وعَدُلَ وعُدِلَ وعَدْلٌ وعِدْلٌ وعُدْلٌ نجم عن ذلك الوف الوف من الالفاظ ويصير عدد التراكيب مما يصعب علينا حصرهُ بل مما يدهشنا ادراكهُ

فاذا دققنا النظر في ما تقدّم رأينا ان غنى اللغة غير متوقف على كثرة الفاظها . فانهُ لا نكتة في تركيب لفظة جديدة يسهل على كل مَن تعلّم الحروف الهجائية امر وضعها بل

النكتة في ايجاد معنى غير مطروق لهذه اللفظة الجديدة . ومن ادّعى ان لغة لها مائة الف لفظة تدل على تسعين الف معنى تضاهي في الغنى لغةً لها مائة الف لفظة تدل على مائة الف معنى اخطأ رأياً وضلّ حساباً . لان هنه فيها معادلة بين الالفاظ والمعاني واما تلك فينقصها عشرة آلاف معنى لعدم وجود الفاظ تدل عليها . على ان العشرة آلاف لفظة الزائدة عن معانيها ساقطة لا كبير طائل لها . وهي ما نسميه " المترادف " . وهذا هو المقصود مما تقدّم تنبيهاً على الذين يباهون بالمترادفات الكثيرة الموجودة في لغتنا بانهم في ضلال مبين وشطط عظيم

قال القاموس "الترادف عند اهل العربيّة هو توارد لفظين مفردين او الفاظ مفردة على معنى واحد من جهة واحدة . وذلك بحسب الوضع الاصلي لا بحسب العرف الاصطلاحي " وقد جعل الذين عنوا بجمع القواميس العربيّة منذ القرن الثاني للهجرة[1] جلّ دأبهم التقاط المترادفات اللغويّة من كل وارد وشارد . حتّى صدق فيهم المثل لكل " ساقطة لاقطة " وذلك لزعمهم انها دراري منثورة او لآلئ غير منظومة خليقة ان يحتفل بها فتضمّ في قلادة منضودة وتعلق في جيد اللغة العربيّة زينة لها وافتخاراً للناطقين بها . ولم يفطن هؤلاء لاشتغالهم عن العلوم باللغة ان هذه واسطة وتلك غاية . وان الاحتفاء الزائد بالواسطة مع اغماض النظر عن الغاية مما يؤخرنا عن بلوغ الوطر منها . وان كان هؤلاء يعذرون لان في ازمانهم لم تكن العلوم قد بلغت ما بلغت اليه الآن من الارتقاء والاتساع فاخذوا يبذلون جهدهم في استقصاء الدقائق اللغويّة متمرين اللغة التي هي آلة صناعيّة مقام العلوم التي هي غاية جليلة فلا عذر لنا نحن ابناء القرن التاسع عشر (قرن البخار والسكك الحديد والسلك البرقي والنور الكهربائي) اذا ابقينا لغتنا على الحالة التي اورثها لنا فيها اجدادنا من حيث المترادفات التي تعدّ بالالوف ويطلق البعض منها على معاني حقيرة او سخيفة والبعض الآخر على ما يستنكر ذكرهُ لانهُ حجة دامغة بالفحشاء على من يتلفظ به

ثانياً ان العرب تعلموا صناعة الخط من السريان واول قلم استعملوهُ القلم المعروف بالاسطرنجيلي وهنه تولّد القلم الكوفي الذي نراهُ في الكتابات والمسكوكات القديمة . وكانوا يكتبون الاحرف بلا نقط لاغناء الاحرف عنها . فان صورها كانت غير قابلة للالتباس

(١) ان اول كتاب استوعب اللسان العربي كتاب " العين " لخليل ابن احمد الفراهيدي الذي عاش في القرن الثاني للهجرة

والاشكال خلاف ما هي عليهِ الآن . فلما كثر استعمال الكتابة وتغيرت صور بعض الحروف وصارت متقاربة ومتشابهة استنبطوا النقط لتمييز الحروف المتشابهة في الصور . فمن المحتمل انهم عند تشكيل الكتب القديمة اختلف الكتاب في تنقيط بعض الفاظ مخصوصة فتولد من هذا الاختلاف مترادفات كثيرة لايمكننا تفسير وجودها في اللغة الاّ اذا سلمنا بامر تصحيفها . والمترادفات التي من هذا القبيل اكثر من ان تذكر (١)

ثالثًا ان عددًا كبيرًا من المترادفات نجم عن القلب وهو تقديم بعض حروف الكلمة على بعض . وعندنا ان هذا النوع مسبب من خطاء الناسخين الاولين الذين عند نقلهم الكتب القديمة مسخوا بعض الالفاظ وحرفوها فاشتبها المتاخرون بما هي عليهِ من التحريف ونسبوها الى الترادف (٢)

رابعًا ثم ان الابدال قد تولد عنهُ مترادفات كثيرة العدد . والابدال جعل حرف مكان حرف . وكان العرب يبدلون النون من اللام والصاد من السين والكاف من القاف والزين من السين والطاء من الدال والظاء من الذال . وقد توسعوا في هذه الاحرف حتّى انتهت الى اكثر من عشرين حرفًا ليس من حاجة الى ذكرها هنا (٣)

واما الاشياء التي خصت بكثرة المترادفات فهي الابل والخيل والاسد والخمرة والداهية

---

(١) من امثال ذلك الثؤرور والثؤرور والثؤثور والثؤثور التابع للشرطي والجلواز . والحراسن والحراشن والحراسين والحراشين النجاف من الابل . والفتل والفتيل والفتالة والفتالة القصير . والضمام والصمام الداهية . والعنلقة والغنلقة المرأة السيئة النطق والعمل . والحرنقة والحرنفة القصيرة . والحشارة والخشارة رعاع الناس . وتاجت الاصبع في الشيء الوارم او الرخو وثاجت وتاخت عاصت . ومترادفات اخرى كثيرة العدد ناتجة من التصحيف

(٢) من امثال ذلك العسلبص والعلبس الشديد المكسب . والحرساف والحرفاس الجراد . والقنع والحنف والخنث والخنث الفبة . والخلطة والخطة الاسترخاء . والحنس والخنس المرأة البذية القليلة الحياء . والخلجز والخجلز الضيق البخيل . والخجدر والخدجر القصير . والخجاف والخحاف مشي البطن عن تخمة . والبسس والسبسب القفر الخالي . وخذعه وخدعه قطعه بالسيف وجبذ الشيء وجذبه جره . ومترادفات اخرى نظيرها تعد بالمئات

(٣) من امثال ذلك الحنكى والحمكى الضعيف . والهيكلة والهيكة المرأة الناعمة الفضة وبلهص وبلهس اسرع في مشيه . والعماس والعماص الشديد الظلام . والمعرّس والمعرّص موضع النزول في آخر الليل . والتريك والفرسق ضرب من الخوخ . والعكال والعقال حبل يعقل به البعير . وعرطس الرجل وعرطرقى عن القوم . والمغلندف والمغلنطف الشديد الظلمة . وبلدح الرجل وبلطح ضرب بنسيء الارض . والغليظ والغليظ خلاف اللين . والحضد والحضظ دواء للابل وامثال اخرى كثيرة نظيرها

والعجوز والسيف والنخيل والدليل والجراد والبئر والسيد والاصل والسنة الشديدة واقام بالمكان وخف واسرع في المشي وغير ذلك مما يتعج ذكرهُ

ولما كان العرب الاولون من اهل الوبراي سكان الخيام وكانت الابل تقدّم لهم كثيرًا مما احتاجوا اليهِ من مأكول ومشروب وملبوس ومركوب وسكن فقد عاملوها من حيث الالفاظ اللغويّة الدالة على ما هو متعلق بها معاملة الذكر والانثى من بني آدم. بل خصصوا بها كثيرًا من الالفاظ للدلالة على معاني شاملة لم يعينوا شيئًا منها للانسان. على انهُ قلما يوجد في اللسان العربي فعل لم يخصص العرب بعضًا من معانيهِ بالابل. وقد اخذنا بجمع الذوات والصفات والافعال واسماء اشياء مختصة بالابل فوجدناها تزيد عن ثلاثة آلاف لفظة قد استغرقت اكثر من عشرين الف كلمة لتفسير معانيها. فماذا يا ترى ينفعنا نحن ابناء هذا القرن معرفة هذه الاسماء والافعال المختصة بالابل واكثرنا لا يرى الجمال والنوق الاّ نادرًا. وقد اغنتنا الحال منذ مئات من السنين عن اكل لحومها وشرب البانها وركوب متونها والسكن في خيام منسوجة من اوبارها بل اي فائدة في شحن القواميس العربيّة بهذهِ الالفاظ واكثرها لا اثر لهُ في الكتب العربيّة التي بين ايدينا

ثم ان العرب احلوا الخيل في الطبقة الثانية بعد الابل من حيث الاسماء والافعال التي خصصوها بها. وجمع هذه الاسماء والافعال مما يقتضي لهُ كتاب مخصوص

ومن شوارد اللغة العربيّة كثرة المترادفات الدالة على العجوز. واسماؤها اكثر من ان تحصى. واغلبها الفاظ سداسيّة يصعب النطق بها وينفر الذوق السليم من اسماعها. منها الكهكه والشنشليق والعنشليل والشمشليق والمجموش والمحمرش والصهصليق والطرطبيس والدردبيس والمجرط والحنظبر وخلافها. وكأنّ العرب كانوا يتفاءلون من لفظة العجوز حتّى اطلقوا نفس هذه اللفظة على زيادة عن سبعين معنى ليس بينها قرابة او علاقة منها الارض والاسد والخلافة والخمر والدنيا والفضة والفرس والكلب والملك والنار والبحر وغيرها

ومن هذا القبيل ايضًا الداهية. فان اسماءها كثيرة واغلبها الفاظ رنانة طنانة يستهجنها الذوق السليم وتشمئز منها الاذان الصحيحة. منها الجلنج والحماقس والجلنزير والضغط والطلطين والعنتريس والفواضية والمكمس والعنقنبر والتكرين والتكلين والعنفزة والبطيط والعقابس والمجارم. ولها عن الكنايات اللطيفة ما لا نظن ان احد الكتبة يؤثر تخيق تأليفهِ بها. منها ام حبوكرى وابن بارح وابنة معير وبنات طباق وام الريبق واست الكلبة ونظيرها. وقد وضعوا للاسد مئات من المترادفات الفصيحة التي تساوي في

الطلاوة والرقة مترادفات العجوز والداهية السابق ذكرها . منها الجحدب والابعث والمبهنس والجلنباط والبهيس والجهجهة والمضطلبك والضبارك والضبير والطحاخ والعرباض والعرندس والضرضم والعذكوس والفرفار والعضمرّ والعطاط والعفروس وكثير مثلها

وقد اتصفت اللغة العربيّة بكثرة المترادفات الدالة على الخمرة حتّى قال احد المدققين ان الالفاظ التي جاءت بهذا المعنى من اسم وصفة وكناية تزيد عن الف كلمة . وهذا من النوادر الغريبة التي تحملنا على العجب فان القبائل العربيّة لم تشتهر بما اشتهرت به بعض الامم الغربيّة من معاقرة الراح وادمان المسكرات . وكان الاولى ببعض شعوب الافرنج ان يكون في قواميس لغاتهم عدد من المترادفات التي في لغتنا لافتقارهم اليها واغتناء القبائل العربيّة عنها

ومن الشوائب التي امتازت بها لغتنا عن سواها من اللغات كثرة الالفاظ المصرحة باشياء يدعى التعبير عنها بالبذاء . وقد كان الواجب على اللغة ان تستر بالفاظها ما يستره الانسان من اعضائه وافعاله

ولا يخفى ان المترادفات من اكبر العوائق التي تحول دون بلوغنا المراد من العلوم والفلاح في اتقانها . وذلك لانها تصعّب علينا درس اللغة بتكثير الفاظها دون طائل وقد سبق القول بان اللغة واسطة نتوصل بها الى تبادل الافكار . و بتبادل الافكار تنمو العلوم وتتقدم المعارف البشريّة . ثم ان المترادفات تبعث على تعقيد المعاني والتباس العبارة . وما يكسبه الكلام بها من الزخرفة والتنميق لا يُعدّ شيئًا بجانب ضياع الوقت الثمين في تعلمها . قال فولتير في قاموسه الفلسفي : «اعلم ان كثرة الالفاظ تضرّ بالتقدم في العلوم . وان تقليل المترادفات اللغويّة مما لابدّ لنا عنه اذا همّنا امر التعبير عن افكارنا بعبارات صريحة وهذا ما تعيقنا عنه كثرة المترادفات»

على ان العلماء اللغويين قد انكروا وجود مترادفات حقيقيّة بدعوى ان الاصل في الالفاظ الدالة على المعاني التباين والاشتراك والاتحاد خلاف الاصل . وان وضع لفظتين للدلالة على شيء واحد مما ينافي روح اللغة وغايتها التي وضعت لها . وقد حاول احمد فارس شدياق رحمة الله عليه التمسك بهذا الرأي في ما يختص بلغتنا العربيّة اذ قال في كتابه الفرياق «على اني لا اذهب الى ان الالفاظ المترادفة هي بمعنى واحد والاّ لسموها متساوية . وانما هي مترادفة بمعنى انّ بعضها قد يقوم مقام بعض . والدليل على ذلك ان الجمال مثلاً والطول والبياض تختلف احوالها باختلاف المتصف بها فخصت العرب كل نوع منها باسم

ولبعد عهدهم عنا تظيناها بمعنى واحد » : قلنا لو راجع تعريف المترادف الذي سبقت الاشارة اليهِ لما اتى بهذا الرأي . فان العرب اطلقوا لفظة الترادف على توارد لفظين مفردين او اكثر على معنى واحد من جهة واحدة وذلك بحسب الوضع الاصلي لا بحسب العرف الاصطلاحي . وقد نقوا بهذا القيد الاخير كل الصفات التي تطلق على معاني متقاربة . فاين هذا التعريف من رأي صاحب الفرياق . وفضلاً عن ذلك ففي كتب متن اللغة شواهد لا تحصى تناقض هذا الرأي . فان المترادفات الحقيقيَّة المقتضبة تعدّ فيها بالالوف كما سنبين

اما الاسباب التي تأتّى عنها السواد الاعظم من المترادفات العربيَّة فهي الآتية :

اولاً ان اللغة العربيَّة كان يتكلّم بها في باديء امرها قبائل متفرقة في البادية . وكانت هذه القبائل لا تواصل بعضها بعضاً الاَّ ايام الحروب والغزوات سعياً وراء السلب والسبي . ولذلك لم تجمعها وحدة الفرض والعلاقات الاليَّة التي تربط اعضاء الهيئة الاجتماعيَّة في الحاضرة . ومن ثمَّ قد انفردت كل قبيلة بتسمية كثير من الاشياء باسماء غير معهودة عند القبائل الاخرى . ولما جمعت كتب متن اللغة في توالي الاعصار التقط الجامعون لها هذه الاسماء بواسطة النقل او من الكتب وادخلوها فيها مطلقين عليها اسم الترادف

الكافور

قال ابن سينا في قانونهِ " الكافور اصناف الفنصوري والرباحي ثم الازاد والاسفرك الازرق وهو المختلط بخشبهِ والمتصاعد عن خشبهِ وقد قال بعضهم ان شجرتهُ كبيرة تظلّل خلقاً وتألفهُ الغمورة فلا يوصل اليها الاَّ في مدة معلومة من السنة وهي سفحيَّة بحريَّة هذا على ما زعم بعضهم . وتنبت هذه الشجرة في نواحي الصين اما خشبهُ فقد رأيناهُ كثيرًا وهو خشب ابيض هشّ خفيفٌ جدًّا وربما اختنق في خلالهِ شيءٌ من اثر الكافور " وقال القزويني ان شجرة الكافور " هنديَّة يألفها السرصعها كافور يسيل من اسفل الشجرة " . وقال المسعودي ان الكافور ببلاد فنصور او جزيرة سرنديب واليها يضاف الكافور الفنصوري والمدة التي تكون كثيرة الصواعق والرجف والقذف والزلازل يكثر فيها الكافور واذا قلّ ذلك نقص وجودهُ . وقال اسحق ابن عمران الكافور يجلب من سفالة واعضهُ من هريج وفي الصين الصغرى وهو صمغ شجر يكون هناك لونهُ احمر ملمع وخشبهُ ابيض رخو يضرب الى السواد وانما يوجد في